مؤسسة الحرمين... الإقلاع حتى السقوط

أعلن أخيراً حل "مؤسسة الحرمين الخيرية " بشكل كامل في الداخل والخارج، بعد آمال باقتصار حلها على الخارج وحده.

وكانت استقالة مدير مؤسسة الحرمين الخيرية الشيخ/ دباس بن محمد الدباسي ترجمت أجواء الترقب والحذر التي سيطرت على المنظمة منذ إعلان السلطات السعودية يونيو ٢٠٠٣ عزمها على حلها في مؤتمر صحفي مشترك بين مسؤول سعودي وأمريكي، أعلن الطرف الأمريكي فيه ضم مدير المؤسسة السابق عقيل العقيل إلى قائمة ممولي الإرهاب.

ورغم اختلاف الشخصيات القيادية بالمؤسسة حول توقيت الحل الكامل إلا أن الغالبية ترى ضرورة استمرار العمل حتى إبلاغ المؤسسة رسميا بالقرار، مع ما يصاحب ذلك من شعور بتضاؤل أمل عودة العافية إلى المؤسسة بعد مضي ستة أشهر على تجميد حساباتها.

وفي زيارة لمقر الإدارة العامة وسط الرياض لا تبدو الحياة طبيعية كما هي من قبل، وبات القلق هو السمة الغالبة على كل من

تقابله في أروقة المؤسسة التي أشبه ما تكون بالأطلال، إذا ما تذكرالمتجول فيها صورتها التي ولّت ربما إلى غير رجعة.

الصندوق الذي كان أول ما يستقبلك بأبوابه المشرعة في البهو العام أمام المتبرعين أشبه ما يكون بالمهجور، إلى لجان المؤسسة المقسمة جغرافيا، (آسيا وإفريقيا وأوروبا) والإدارات المساندة لها، التي أصبحت هي الأخرى شيئا من أحاديث الماضي بعد أن هوت واحدة تلو الأخرى، ولم يبق سوى أفراد من الموظفين لتصفية أعمالها بعد أن تركت العمل في كل من أوروبا وإفريقيا وآسيا.

الموظفون الذين يتجاوزون (٥٠٠٠) موظف من بينهم (٢٥٠) تقريبا في مقر الإدارة العامة، لم يعودوا يشكلون رقما يذكر، والغالبية منهم من ذوي الوظائف الحكومية المتطوعين بفضل أوقاتهم فترة المساء.

بعض من قابلتهم (الحياة) من هؤلاء لم يكونوا على ثقة أن الحديث عن معاناتهم سيجدي نفعاً، لذلك كما يقول أحدهم " لا داعي لضياع الوقت، لقد تعودنا على الاتهامات الأمريكية للمؤسسة،ونحن واثقون أنها بريئة " لكن همساتهم فيما بينهم تشير إلى أنهم لم يعودا يشعرون بالأمان بطبيعة الحال!

مدير عام المؤسسة دباس الدباسي المستقيل أكد في تصريحات سابقة أن المنظمة " تخلت عن العمل في الخارج وأغلقت

حتى الآن ١٤مكتبا، وماضية في إغلاق البقية، بهدف التركيز على داخل المملكة " موضحا أنه لم يتلق " تعليمات تفيد حل المؤسسة " ربما كان نبأ استقالته الذي أعلن ليس سوى مناورة أمل منها "أن تعود بالنفع على المؤسسة" لتذكير الرأي العام بقضيتها.

خارج المؤسسة سألنا الموظف عبد العزيز (٢٧) عاما الذي أمضى في المؤسسة (٥) سنين ما إذا كان يعتقد أن الاتهامات الأمريكية ضد الحرمين تكتسب مصداقية بين أوساط زملائه ؛ فأجاب: " الولايات المتحدة تقول نحن سيئون، ونحن نقول إننا رائعون. حسنا... فلتحكم بيننا الأدلة ".

لم يكن يهم عبد العزيز بقاء مكاتب الحرمين في الخارج كثيرا.. بعد الاتهامات التي رآها مغرضة لكنه أضاف " أغلقوا قبل شهر خمسة فروع هي في هولندا وألبانيا وأفغانستان وبنغلاديش وأثيوبيا لا بأس فليحكموا عليها الأقفال وليقولوا لنا ما هي المنظمات الإرهابية التي دفعنا لها الثروات، والشخصيات التي مولناها لتنفيذ عمليات انتحارية "

وزاد "الأميركيون لا يريدون أن نكفل (٧٠٠٠) يتيم نعلمهم القرآن، والصلاة والصيام، إنهم يريدون أن ندرسهم التوراة والإنجيل".

متطوعون.. ومذنبون!!

ويقول أبو فهد (٣٥) عاما "أي شيء يمس المؤسسة هنا، لاشك أنه سيكون مسيئا للجميع. ليس سهلا أن تقنع أشخاصا أفنوا

أوقاتهم وأموالهم في فعل الخير بأنهم كانوا في واقع الأمر مذنبين!!

مؤسسة الحرمين الخيرية التي أصبحت واحدة من أشهر المؤسسات الخيرية على الساحة السعودية رغم أنها لا تملك تصريحا للعمل في السعودية حتى هذه اللحظة استطاعت توطيد هامش علاقات واسع مع رجال المال والأعمال في المجتمع السعودي، وتجمع سنويا من بين ٤٥- ٥٥ مليون دولار.

ويرى المراقبون لتحولات النشاط الخيري أن المؤسسة استطاعت أن تكسب ثقة التيار السلفي بسبب منهجها في تقديم المساعدات، إذ لم تكن تقتصر على تقديم الطعام والكساء للمتضررين وحسب، ولكنها تضيف إلى ذلك التبشير بالمذهب السلفي في المناطق التي تعمل بها.

ملاحظات متداولة

ومع اتفاق الغالبية من المحللين على أن استهداف أمريكا للمؤسسات الإسلامية دون ذنب بعد أحداث ١١ سبتمبر بات واضحا إلا أنهم لم يكونوا يتفقون مع مؤسسة الحرمين الخيرية في كثير من خططها واستراتيجياتها.

فقبل بضعة أشهر من إقالة مديرها السابق عقيل العقيل كان ثلاثة من رموزها قدموا استقالتهم احتجاجا ضد بعض سياسات المؤسسة في استثمار التبرعات، وبعض التجاوزات التي رأوا أنها مخالفة للخط المرسوم للمنظمة.

وتعود قصة إنشاء مؤسسة الحرمين الخيرية إلى عام ١٩٨٨م في كراتشي ـ كما يروي عقيل العقيل مؤسسها ـ قائلاً: "عندما زارني الشيخ محمد ظفر الله خان مدير ومؤسس جامعة أبو ظبي في كراتشي تباحثت معه في إنشاء مؤسسة ترعى الأعمال الدعوية التي أشرفت على إقامتها في المنطقة بعد رحيلي عن باكستان، إذ كانت كل المدة التي تقرر أن أبقاها هنالك (٤) سنوات ".

ويكمل " أخبرني خان بأن افتتاح مؤسسة خيرية أمر في غاية السهولة من الناحية الرسمية في باكستان آن ذاك فاتفقنا على إنشاء مؤسسة وسميناها (الحرمين) وتم تسجيلها رسميا في كراتشي ".

وهناك ولدت مؤسسة الحرمين وفتح أول مكتب لها إلى أن عاد العقيل راجعا إلى السعودية بعد انتهاء فترة عمله في كويتا في إقليم كراتشي ناقلا معه المكتب الرئيس لمؤسسته، حيث استطاع حشد تأييد شعبي واسع لأنشطتها، وساعده في ذلك التزامها المنهج السلفي الذي يلقى رواجا واسعاً في المجتمع السعودي ولا يزال، بالإضافة إلى تتابع الكوارث في أنحاء شتى من العالم الإسلامي ؛ نهضت منظمته بدور كبير في إغاثتها في بنغلاديش فالبوسنة والهرسك ثم الصومال والشيشان.

ويحاول البعض إيجاد ربط بين "الظرف الزمني والمكاني" لنشأة مؤسسة الحرمين وبين عدم حماس الحكومة السعودية لها، إذ لم تمنحها إلى هذه اللحظة تصريحاً.

بينما يرى آخرون أن ذلك يعود إلى علامات الاستفهام التي أثارها المنهج الدعوي والتعليمي الذي تمارسه المؤسسة بصورة مشابهة لتلك التي تسلكها المؤسسات التنصيرية في اتخاذ الإغاثة وسيلة للضغط على "المستفيدين" من أجل اعتناق الدعوة السلفية التي تدعو هذه المؤسسة الناس في كل أنحاء العالم إليها، الأمر الذي أثار "غيظ" الحكومة الأميركية.. ما دعاها إلى محاولة التضييق على المؤسسة بشتى الوسائل، ومنها الضغط على الحكومة السعودية للتعامل معها بصورة منفردة عن باقي المؤسسات الأخرى.

ويشير تقرير الكونجرس الذي تناول المؤسسة باستفاضة إلى أن الحكومة السعودية كانت تتجاهل مطالبات الحكومة الأميركية ومطالباتها بالحد من نشاط مؤسسة الحرمين حتى قدم الأميركيون معلومات استخباراتية موثقة تثبت تورط المؤسسة في أنشطة غير مصرح بها. حسب تقرير الكونجرس.

العمل المسلّح

وهناك رواية ثالثة ترى أن المؤسسة بالفعل كانت ضالعة في دعم حركات مسلحة إسلامية، كالمقاتلين الشيشانيين والكشميريين فضلا عن الأفغان من قبل، لكن المؤسسة تنفي ذلك إطلاقا، رغم ثبوت أن الكثيرين من السعوديين والمقيمين دفعوا تبرعاتهم لها بهدف مساندة المجاهدين في أفغانستان والبوسنة والشيشان، إلا أن المسؤولين دائما يعتذرون بأن تلك المساعدات ذهبت إلى برامج

إغاثية وتوعوية. وأيا كان فتلك الحركات قبل أحداث ١١ سبتمبر كان ينظر إليها على أنها حركات مقاومة ونضال مشروعة.

ومع إثارة " مؤسسة الحرمين " للجدل إلا أن الذي بات شبه متفق عليه بين الأوساط الشعبية والرسمية أنه " لا أحد يريد أن تخسر الساحة السعودية مؤسسة أصبحت ذات تجربة مميزة في مجالها كمؤسسة الحرمين "، وبذات القدر يتفق الجميع أيضا على أن " الأموال التي يتبرع بها المحسنون يجب أن يتعامل مع صرفها بشفافية تامة ".

وباستمرار يكون رد فعل المنظمة وغيرها من المؤسسات السعودية أن " لا شيء لديها تخفيه.. وأبوابها مفتحة لكل من أراد معرفة الحقيقة ".

مرحلة الانتشار

وما بين نقل المكتب الرئيس لمؤسسة الحرمين إلى الرياض إلى أحداث ١١ سبتمبر تمكنت الحرمين من تحقيق انتشار واسع في إفريقيا وآسيا وأمريكا وأوروبا. وخاصة في الدول العربية التي يحظر فيها أي نشاط لها، مثل: (دول الخليج لبنان الأردن سوريا المغرب) لكنها تسللت إليها عبر جمعيات محلية تدعم برامجها وفق شروطها الخاصة. وبعد أحداث أيلول بدأت أصابع الاتهام تشير إليها، فاقتحمت قوات حفظ السلام في ألبانيا مكتبها هنالك بعد تفجيرات مانهاتن بأقل من أسبوع.

وبعد مضي نحو من عام على المضايقات ضد المؤسسات العربية في البوسنة جمدت الحكومة المحلية حينها نشاط مكاتب الحرمين قبل أن يعلن وزير الخزانة الأمريكي في خطوة مشتركة مع وزير الداخلية السعودي تجميد نشاط مكتبي المؤسسة في البوسنة والصومال.

تتابعت بذلك التطورات فأقصت السلطات السعودية مدير المؤسسة ومؤسسها عقيل العقيل عن منصب المدير العام، وكلفت دباس الدباسي خلفا له.

وأعلن عادل الجبير مستشار ولي العهد للشؤون الخارجية في يناير الماضي تجميد أنشطة أربعة فروع لمؤسسة الحرمين في إندونيسيا وكينيا وباكستان وتنزانيا.

تلا ذلك اقتحام مكتب المؤسسة في أمريكا وتجميد نشاطه، إلى أن قررت حكومة المملكة وضع حد ـ فيما يبدوا ـ يقضي بحل مؤسسة الحرمين الخيرية كما أعلن الجبير في مؤتمر صحفي الأربعاء الماضي جمعه مع مسؤول مكافحة الإرهاب بالخارجية الأميركية كوفر بلاك في مقر السفارة السعودية بواشنطن وأعلن حظر نشاط خمسة فروع إضافية لمؤسسة الحرمين، بسبب ما وصفته أمريكا بالدعم المالي واللوجستي الذي قدمته للقاعدة ومنظمات أخرى.

كما وضعت الولايات المتحدة اسم عقيل العقيل، الرئيس السابق لمؤسسة الحرمين، ضمن لائحة ممولي الإرهاب ويترتب على

ذلك وقف كل معاملاته المالية وتجميد أصوله ويطالب هذا الإدراج جميع دول العالم باتخاذ إجراءات مشابهة ضده.

والذي أبلغ (الحياة) في ذلك الوقت عزمه على تفنيد التهم الموجهة إليه وإثبات " أنها غير صحيحة، فقد أمضيت ربع قرن من حياتي في مساعدة الفقراء والأيتام والأرامل والمساكين، وكافة أنماط المساعدة الإنسانية للمتضررين، ولذلك فإنني أعتبر تلك التهم باطلة " مؤكدا أنه سيتجه " إلى القضاء الأمريكي لرفع دعوى ضد قرار اتهامي بتمويل الإرهاب، وسأعين محاميا يدافع عني هنالك على الفور ".

وينحدر عقيل العقيل مؤسس (مؤسسة الحرمين الخيرية) من أسرة سعودية عريقة من (عقيلات القصيم) (وسط السعودية) اشتهرت بالتجارة والعلم، ويعد شقيقه عبدالله العقيل من أبرز علماء السعودية الكبار، وكان رئيس مجلس القضاء الأعلى.

وتلقى عقيل دراسته الجامعية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وكان الثاني على دفعته.

وسئل في حوار مع صحيفة محلية قبل عامين، عن أول بداية اهتمامه بالعمل الإغاثي الخيري فأوضح أن البداية كانت لقاؤه مع أفراد من " جماعة التبليغ " الذين أعجب بطريقتهم في الدعوة إلى الله، فانخرط في سلكهم حتى تخلى عنهم بعد أن شغلته همومه

اليومية، حيث يعمل مدرسا في المرحلة الثانوية، و يشغل إلى جانب ذلك وظيفة إمام وخطيب جامع في (حي العليا) وسط مدينة الرياض.

كما ينحدر دباس بن محمد الدباسي ـ الذي استقال من مهام مدير عام المؤسسة مؤخرا ـ هو الآخر من منطقة القصيم، وحاصل على الماجستير من جامعة الأمير نايف العربية للعلوم الأمنية، وعمل متطوعا بمؤسسة الحرمين بعد إنشائها بخمس سنين تقريبا، إلا أنه سريعا ما تقلد مناصب كبيرة فيها مع ما شهدته علاقاته مع المدير الذي قبله من توتر بسبب اختلافهما حول بعض طرق صرف أموال التبرعات، كما تقول مصادر مطلعة.

وقد خلف دباس الدباسي في إدارة مؤسسة الحرمين حجاج العريني الذي كان ضابطا برتبة (مقدم) في الجيش السعودي بعد أن قدم الأول استقالته للمشرف على المؤسسة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية السعودي، والذي كلف حجاج بإدارة المؤسسة.

يذكر أن مؤسسة الحرمين التي قررت السلطات السعودية حلها ترتكز أعمالها على التعليم والدعوة إلى الله. ومن شق آخر على إغاثة المسلمين عند حلول الكوارث، وكفالة الأيتام.

ووفق تقارير صادرة عنها قبل عام (من إعداد التقرير)، أنفقت أكثر من مليار ريال سعودي على تلك المجالات والأنشطة.

لعبت الحرمين دورا بارزا كما تفيد التقارير في مساعدة الشعب الفلسطيني. وكذلك الفقراء داخل المملكة. وأعلنت أنها أنفقت في العام الماضي الذي سبق إغلاقها، أكثر من ١٠٠ مليون ريال على بناء المساجد، وأنشطة اجتماعية وإغاثية ودعوية أخرى.